السؤال والغاية منه عند سقراط من خلال منهجه

د. حملاوي مهتور

جامعة 20 أوت 1955 – سكيكدة، mehtour.hamlaoui@yahoo.fr

تاريخ الإيداع: 2023/03/10 تاريخ المراجعة: 2023/05/24 تاريخ القبول: 2023/05/25

ملخص

نسعى في هذا البحث إلى محاولة الكشف عن الغاية من السؤال عند سقراط من خلال منهجه، ذلك أن عبقرية سقراط قد تجلت في السؤال المرتبط بالإنسان، وإذا كان السؤال عادة يكشف عن الجهل والرغبة في المعرفة، فإن سقراط لم يكن يسأل لأنه يجهل أمرا ما، بل كان يسأل ليتظاهر بالجهل، وكان يسعى إلى رسم طريق المعرفة للناس، لأنه كان يؤمن بأنهم يمتلكون المعرفة، وأنه يساعدهم في الوصول إليها، وهذا عن طريق منهجه الحواري القائم على التهكم والتوليد.

الكلمات المفاتيح: سؤال، سقراط، منهج، جهل، معرفة.

The question and its purpose when Socrates through his method

Abstract

Through this study, we seek a contribution to determine the purpose of the question in the of Socrates’ approach. Knowing that the genius of Socrates manifested itself in the question related to man, although the question generally reveals ignorance and a desire for knowledge, Socrates did not ask because he was ignorant, but pretended to be ignorant. He sought to draw the path of knowledge for people, because he believed that they possessed knowledge, and he would help them to attain it. This is initiated through his dialogue approach based on sarcasm and proliferation.

Keywords: Question, Socrate, method, ignorance, knowledge.

La question et son but chez Socrate à travers sa méthode

Résumé

Nous cherchons à travers cette recherche à tenter de déterminer le but de la question posée par Socrate à travers sa méthode, car le génie de ce philosophe s'est manifesté dans la question liée à l'homme, et si cette dernière révèle généralement l'ignorance et le désir de la connaissance, Socrate ne demandait pas, il faisait semblant d’être ignorant, cherchant ainsi à tracer le chemin de la connaissance pour les gens, car il croyait qu'ils possédaient la connaissance, et qu'il les aidait à l'atteindre grâce à son approche dialogique basée sur le sarcasme et l'obstétrique.

Mots-clés: Question, Socrate, méthode, ignorance, connaissance.

المؤلف المرسل: د. حملاوي مهتور، mehtour.hamlaoui@yahoo.fr

مقدمـــة:

عندما يريد الإنسان أن يعرف فإنه يسأل، وهو بذلك يكشف مبدئيا عن جهله، ورغبته في المعرفة، وتوقه إليها وقد كشف الإنسان عن هذه الرغبة منذ القدم، وحاول فهم الظواهر الطبيعية المختلفة، وسعى للكشف عن أسرار الكون وفك رموزه وألغازه، فتعددت على إثر ذلك تفسيراته، فمن التفسير الخرافي والأسطوري إلى التفسير العقلاني وأيا كانت طبيعة التفسير؛ فقد كان السؤال أداة الإنسان في رحلة البحث عن المعرفة، ومحاولة الكشف عن خبايا المجهول، والسؤال بالنسبة للفكر الإنساني بوجه عام قديم قدم الحضارات الشرقية، أما بالنسبة للفكر الفلسفي وبوصفه تفكيرا متميزا عن غيره من أنماط التفكير الأخرى، فإن السؤال قد ظهر مع الفلسفة اليونانية، حيث بحث فلاسفة اليونان في البداية في الطبيعة، وتساءلوا عن أصل الكون ونشأته، ولكن الفلسفة اليونانية ما لبثت أن تحولت إلى البحث في الإنسان مع السوفسطائيين وسقراط، هذا الأخير الذي أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض على حد تعبير الخطيب الروماني شيشرون، ليتحول سقراط بعد ذلك إلى معلم فلسفي بارز يؤرّخ به للفلسفة اليونانية، التي تحولت بدورها إلى مرجعية فكرية وفلسفية عالمية.

ويكتسي الحديث عن السؤال أهمية بالغة في السياق المعرفي بوجه عام، وفي السياق الفلسفي بوجه خاص وفي سياق الفلسفة اليونانية بوجه أخص، وفي سياق فلسفة سقراط بوجه أكثر تخصيصا، ذلك أن عبقرية سقراط قد تجلّت في السؤال الفلسفي الذي يوجّهه إلى الآخرين، كما أنه قد عرف بمنهجه الجديد المتميز عن منهج معاصريه من السوفسطائيين، وضمن هذا السياق يأتي بحثنا هذا، والذي نسعى من خلاله إلى التعريف بمنهج سقراط الفلسفي، وإبراز محورية السؤال والغاية منه عند سقراط، ولفت الأنظار إلى الآفاق المعرفية التي يمكن للسؤال السقراطي أن يفتحها للإنسان، وهذا عبر إثارتنا لسؤال هام ومحوري وهو: ما الغاية من السؤال عند سقراط كما يبدو من خلال منهجه؟

وقد اعتمدنا في محاولة الإجابة عن هذا السؤال على المنهج التحليلي، وبعض أوجه المنهج المقارن، وهذا في حديثنا عن أوجه التشابه والإختلاف بين منهج السوفسطائيين ومنهج سقراط، والتمسنا خطة تستجيب لمسعانا المنهجي، حيث قسّمنا بحثنا على إثرها إلى مقدمة، وخمسة عناصر، وخاتمة، وهذا على النحو الآتي:

1ـ مفهوم السؤال:

سنحاول التعرّف بداية على المعنى اللغوي للسؤال، إيمانا منا بأن اللغة سلطة مرجعية تفرض نفسها علينا ونحن لا نملك إلا أن نذعن لها، وبشأن التعريف اللغوي للسؤال جاء في المعجم الوسيط: "(السؤال): طلب الصدقة(...) وما يطلب من طالب العلم الإجابة عنه في الامتحان"[(1)]. وجاء في لسان العرب:"يقال سألته عن الشيء استخبرته(...) والسائل الطالب"[(2)]، ومن هنا يمكننا القول إن معنى السؤال في اللغة لا يخرج عن الطلب ويمكننا أن نتبين ذلك في قوله تعالى:﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾[(3)]. قال الزجاج: إنما قال سواء للسائلين لأن كلا يطلب القوت ويسأله، وقد يجوز أن يكون للسائلين لمن سأل في كم خلقت السموات والأرض، فقيل خلقت الأرض في أربعة أيام سواء لا زيادة ولا نقصان، جوابا لمن سأل[(4)].

أما من الناحية الاصطلاحية فإن السؤال يعني "استدعاء المعرفة، أو ما يؤدي إلى المعرفة. والسؤال للمعرفة قد يكون للاستفهام والاستعلام تارة، أو للتعريف والتبيين أخرى"[(5)]، واستدعاء المعرفة يعني طلبها، وهذا يعني أن العلاقة بين الطلب والمعرفة هي علاقة هوية، وأن فعل الطلب هو الشرط الضروري لحصول المعرفة فلا معرفة

بدون طلب أو سؤال، وهذا الأخير هو أساس الفلسفة فتكون "الفلسفة بانبنائها على السؤال، قائمة مقام الشرط الذي تحصل به المعرفة، ما دامت حقيقة السؤال هي أنه طلب السائل معرفة المسؤول عنه؛ وحينئذ يصح أن يقال بأنه لا معرفة بغير فلسفة كما يصح القول بأنه لا معرفة بغير طلب"(6).

والمؤكد أن السؤال لا يخرج من فراغ، وإنما له دوافعه، وهذه الدوافع قد تكون داخلية متعلقة بالطبيعة البشرية كالقلق، والدهشة، والشك، وقد تكون خارجية، لا تنبع من الذات البشرية، وبالتالي فهي لا تعبر عن هموم الذات ومعاناتها، وهذه الدوافع تأتي من خلال الإطلاع على تاريخ الفلسفة، وما يتضمنه من مشكلات وحلول ومذاهب ومناهج، تلك التي قد يستعين بها الباحث لمعالجة ما يعترضه من مشكلات.

كما أن السؤال لا يتجه إلى فراغ أيضا، فللسائل، ولا شك رهانات ومكاسب يسعى إلى تحقيقها من خلال طرحه للسؤال، ولذلك فلا غرابة في القول بأن السؤال هو الذي يقرر الإجابة، وهنا يرى البعض أن معيار جدّية السؤال هو قابلية الإجابة عنه، وهذه هي وجهة نظر أصحاب المذهب التجريبي؛ الذين يرفضون الأسئلة ذات الطابع الميثافيزيقي، تلك التي تتعلق بالماورائيات، كتلك التي تتعلق بالحياة بعد الموت، وتلك التي تتعلق بالمعجزات وغيرها، فهي كلها أسئلة غامضة ومبهمة والفكر ينشد الوضوح فهمّنا من منظور البراغماتية مثلا هو أن تكون أفكارنا واضحة، ولذلك ينبغي للعقل ألا يبحث إلا في عالم الحس، ويكف عن التساؤل والبحث في عالم الميثافيزيقا، وهو العالم الذي شبّه وليم جيمس الباحث فيه بامرأة عمياء تبحث عن قطة سوداء في غرفة مظلمة وهذا ما استوحاه وليم جيمس من فلاسفة الأنجليز التجريبيين وعلى رأسهم فرنسيس بيكون، الذي ألح على ضرورة كبح جماح العقل في التساؤل البعيد عن عالم الحس، لأن العقل من دون سند حسي تجريبي لا ينتج إلا الخيالات فالعقل يشبه المرآة المشوشة التي ينبغي صقلها.

وعلى ما يبدو فإن طرح السؤال وصياغة السؤال ليس بالأمر السهل، فالسؤال الجدير بالطرح عند البعض قد يكون سؤالا لا معنى له عند البعض الآخر، فلم يتجه الفلاسفة السابقون على سقراط إلى التساؤل حول الإنسان بل كانت أسئلتهم تتجه أساسا إلى البحث في أصل الكون ونشأته، وعندما جاء سقراط حولّ السؤال إلى الإنسان واعتبر البحث في الطبيعة بحثا عديم الجدوى، وجعل من الإنسان موضوعا للسؤال معرفيا ونفسيا وأخلاقيا وعندما جاء أفلاطون قال بأن قيم الحق والخير والجمال تستقر في عالم المثل، والسؤال المحوري الذي ينبغي طرحه هو كيف يمكن معرفة هذه القيم والوصول إليها، وهكذا فإننا نجد بأن موضوع السؤال ليس واحدا عند الفلاسفة، والغاية منه ليست واحدة أيضا.

ويمكن التمييز بين نوعين من الأسئلة في الفلسفة، وهما: السؤال العادي والسؤال الفلسفي، "فالسؤال العادي يملك ثمة معرفة عن موضوعه. ولذلك قيل إّنك لا تبحث عن شيء إّلا لأّنك تجده، أّما السؤال الفلسفي فإنه قد يبدو على العكس. إذ إنه لا يسأل لأنه يجد، بل لأنه _لا_ يجد فإنه يسأل. إنه السؤال الذي يشرع في الوجود ما إن يفتقد ذاته أولاّ قبل أن يفتقد موضوعه. فأن يكون هناك سؤال بذل ألا يكون شيء ذلك هو ما يؤسس للسؤال كينونته أولا"(7).

وللسؤال في الفلسفة علاقة وطيدة بالتساؤل، فالسؤال يتعلق باستفهام محدد عن إجابة أو معلومة معينة، وعندما لا يجدها فإنه لا يلبث أن يتحول إلى تساؤل، لأن القضية أو المشكلة تحتاج إلى مزيد من البحث، وهكذا فإن السؤال يمهّد دائما للتساؤل، وبهذا فإن المشكلة التي أثارها السؤال؛ قد تتحول إلى إشكالية تطرح العديد من التساؤلات التي تستدعي غيرها، فتتحول الإشكالية بدورها إلى معضلة يصعب أو يستحيل حلها، وهنا يجد السائل

نفسه محرجا لأن الأمر لم يكن كما كان يتوقع، فالسؤال الذي طرح عليه لم يجد عنده إجابة دقيقة، وهو ما يقوده إلى الاستمرار في البحث عن الإجابة الغائبة.

وإذا كان السؤال يكشف عن نفسه كأداة معرفية مهمة، فإنه ينبغي الحرص على حسن استخدام هذه الأداة، ولذلك فليس من باب المبالغة القول إن "فن صناعة السؤال هو من أصعب فنون القول"[8]، ذلك أن صيغة السؤال هي التي تجعلنا أمام قضايا الحياة، والموت، والمصير، وهذه كلها قضايا خلافية، لم تقدم بشأنها أجوبة حاسمة ونهائية، فقد تعددت الرؤى والإجابات حول هذه القضايا وغيرها، بتعدد المذاهب والنزعات، ولذلك فإننا نجد بأن ثمة أسئلة تظل تفرض نفسها نظرا لأهميتها كسؤال الحرية، وسؤال الهوية وسؤال المصير.

إن السؤال ولا شك هو أول خطوة يخطوها العقل في مسيرته المعرفية، وهي مسيرة شاقة، ومثقلة بالهموم الميثافيزيقية، والنفسية، والأخلاقية، والإجتماعية، وهي كلها هموم لها ثقلها ولها وزنها ولها أهميتها في حياة الإنسان الذي لا يريد أن يتوقف عن السؤال، لأنه يشعر دائما بأن ثمة إمكانية لتحصيل المعرفة.

2- مفهوم المنهج:

كلمة منهج مأخوذة من لفظة "نهج"، وهذا ما ورد في لسان العرب لابن منظور، حيث يقول هذا الأخير: "نهج: طريق نهج: بين واضح (...) ومنهج الطريق: وضحه (...) وأنهج الطريق: وضح واستبان وصار نهجا واضحا بينا (...) واستنهج الطريق: صار نهجا(...) ونهجت الطريق سلكته"[9]، وقد نسجت القواميس والمعاجم العربية على منوال لسان العرب في إشارتها إلى معنى المنهج على أنه الطريق، وهذا ما نجده في القاموس المحيط للفيروز آبادي، الذي جاء فيه ما نصه: "والنهج الطريق: الواضح، كالمنهج والمنهاج (...) وأنهج: وضح وأوضح"[10].

ومن هنا يتضح لنا بأن المنهج في اللغة يشير وبوضوح إلى الطريق الواضح والبيّن، وينسجم المفهوم الإصطلاحي للمنهج مع معناه اللغوي، فالمنهج اصطلاحا هو: "الطريق الواضح. وجميع الكتب العربية التي سميت بهذا الاسم تشير إلى أن معنى المنهج أو المنهاج عند مؤلفيها هو الطريق الواضح والسلوك البيّن، والسبيل المستقيم "[11].

وجاءت كلمة المنهج كترجمة للكلمة الأجنبية (Method)، ويعني الطريقة أو الأسلوب أو الكيفية التي يصل بها الباحث أو العالم إلى نتائجه؛ فهو وسيلة محددة توصل إلى غاية معينة [12]، وقد استخدم الفلاسفة، ومنذ أن نشأت الفلسفة طرقا ومناهج مختلفة في البحث كشفت وبكل وضوح عن توجهاتهم وأهدافهم وغاياتهم، تلك التي تقودهم إليها مناهجهم، وهي المناهج التي قد يصرّحون بها وقد لا يصرّحون، وهذا يعني أن التفكير الفلسفي هو تفكير هادف ومنظم بعيد عن العشوائية، وهذه في الحقيقة خاصية من خصائص العلم، والفلسفة كان ينظر إليها على أنها العلم الكلي الشامل، فقد كانت الفلسفة مرادفة للعلم، فالفيلسوف ينبغي أن يكون ملما بكل العلوم، ومن هنا جاءت تسمية الفلسفة بأنها أم العلوم.

وقد استخدم الفلاسفة مناهجهم للإقناع بها؛ فالسوفسطائيون سخّروا فنون الخطابة لإشهار آرائهم والدفاع عنها واستخدم أفلاطون ضروب الحوار والجدل، ووظّف الأساطير وضرب الأمثال، وقد ارتبط تعليم الفلسفة عند اليونان بتلقين طرائق التفلسف هذا التلقين الذي يسبق الإقدام على الفلسفة، ويشمل التمرين على طرائق الجدل والاحتجاج فقد أدرج أفلاطون في أكاديميته تمارين على المناهج العلمية وطرائق الجدال[13].

ويعتبر ديكارت صاحب الفضل في التأسيس لمصطلح المنهج في الدراسات الفلسفية الحديثة، وهذا من خلال كتابه "مقال في المنهج"، وكان مبدؤه الأساسي هو الشك لبلوغ اليقين، ولم يكن ديكارت يشك لأجل الشك وإنما كان شكه هادفا، وهو ما يعرف بالشك المنهجي، فديكارت كان صاحب طريقة في البحث الفلسفي، أراد من خلالها أن يقدّم رؤية واضحة لما ينبغي القيام به في التعامل مع شتى القضايا والمشكلات الفلسفية، ومعياره في ذلك تحري الوضوح والبداهة، وهذا ما يتفق مع مفهوم المنهج بوصفه الطريق الواضح والبين الذي لا غموض فيه، وهو ما يتناسب أيضا مع طبيعة العقل، فهذا الأخير ينشد دائما النظام والوضوح وسط الفوضى، والوحدة داخل التعدد والتنوع والاختلاف.

ولأن الفلسفة في جوهرها تفكير عقلي حر؛ فلا غرابة في القول بأن الفلاسفة أحرار في أن يستعملوا، من أجل البحث عن الحقيقة، أي طريق يرونه مناسبا، ولا يستطيع الإنسان، وهو ينظر إلى العالم، أن يمتنع عن سلوك أي نهج يمكن أن يوصله إلى معرفة خبايا وأسرار هذا الكون، وهنا يرى الكثير من الفلاسفة أمثال كارل بوبر وباسكال بأنه يوجد من المناهج التي يمكن أن يستخدمها الفيلسوف بقدر ما يريد، فالمهم هنا هو أن تكون لديه مشكلة تستحق النظر، وأن يحاول صادقا حلها. فهناك من المناهج والطرائق التي ينبغي أن نبتدعها بقدر ما يوجد من مشاكل نسعى لحلها[14].

وبإمكاننا القول هنا بأنه لا توجد فلسفة مثالية يمكن للإنسان أن يتعلّمها، وإنما حسبه أن يتفلسف، فالفلسفة ليست معرفة جاهزة يمكن حفظها، وإنما هي نظر في المعرفة؛ بما ينسجم مع خصائص التفكير الفلسفي، بوصفه تفكيرا عقليا تساؤليا نقديا يستوعب تجارب الإنسان المختلفة، كالتجربة الميثافيزيقية، والتجربة المنطقية، والتجربة الأخلاقية، وتظهر الفلسفة بذلك على أنها شمولية، بل وفضولية وطموحة أيضا.

وإذا كانت الفلسفة قد كشفت عن فضولها وطموحها للكشف عن خبايا الكون، فإنها لم تستطع تقديم الحلول الملموسة لكل المشكلات التي واجهتها، لأنها وإن كانت قد عددت مناهجها فإنها لم تخرج عن الإطار العقلي النظري المجرد، وهو الأمر الذي جعل البعض ينظر إليها على أنها بحث عديم الجدوى، وبحث لا فائدة ترجى منه، وكان هذا في عصر طغت فيه النزعة العلمية، ولكن الفلسفة أثبتت حضورها وقدرتها على مواكبة التحولات والأحداث الكبرى التي ظهرت على مر العصور، فقد استطاعت الفلسفة قبل الميلاد أن تتفاعل وتتكيف مع التفكير الخرافي والأسطوري، بل توظفه لتوضيح نظرياتها وأفكارها، ومثال ذلك ماكان مع أفلاطون في أسطورة الكهف، وفي العصور الوسطى واكبت الفلسفة ظهور الدين، وسعت للتوفيق بين العقل والنقل، أو بين الفلسفة والدين، أو بين الحكمة والشريعة، وعندما ظهر العلم في العصر الحديث لم تتراجع الفلسفة، بل سارت في طريقه ولكنها لم تتوقف عن تقديم رؤيتها النظرية، وواصلت إبحارها في عالم الأفكار، فهاهي الفلسفة تسير في طريق العلم، عندما ظهر هذا الأخير متميزا بمنهجه التجريبي، وهاهو العلم يستنجد بالفلسفة ويعترف بفضلها وأهميتها وقيمتها في عصر العلم، وما ظهور فلسفة التاريخ، وفلسفة الرياضيات، وفلسفة العلوم بوجه عام إلا دليل على ذلك.

3- ظهور سقراط ودور السفسطائيين فيه:

في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد عقب الانتصار الباهر لأثينا على الفرس في موقعة سيلاميس البحرية عام (480 ق.م)، وفي وقت فرضت فيه الديمقراطية سيطرتها على ربوع أثينا، ظهرت طائفة من معلّمي البيان سموا أنفسهم بالسفسطائيين[15]، وقد كانوا يرحلون من بلد إلى أخر يلقون المحاضرات، ويتخذون

لهم طلبة ويتقاضون على تعليمهم أجرا، وكان هذا من أسباب كرههم، لأن الشعب اليوناني لم يعرف ذلك من قبلهم. وكان السوفسطائيون يقبلون على تعليم مواضيع مختلفة يحتاجها الشعب إذ ذاك، فبروثاغوراس مثلا كان يعلّم قواعد النجاح في السياسة، وجورجياس كان يعلم البلاغة وعلم السياسة وبروديكوس قواعد النحو والصرف وهبياس التاريخ والطبيعة والرياضة(16).

وبذلك يكون السوفسطائيون قد وجّهوا الأنظار صوب المسائل العملية المرتبطة بحياة الإنسان، والإنسان المقصود عند السوفسطائية، ليس هو الإنسان كتصور في الذهن، وإنما هو الإنسان الذي يظهر في صورة فرد، يستطيع أن يؤثر في واقعه الذي يحياه، ويعمل على تغييره، وبهذا التوجه العملي تظهر السفسطائية على أنها النواة الأولى، والإطار الذي ترتد إليه الفلسفات العملية التي ظهرت لاحقا، وعلى رأسها الفلسفة البراغماتية، التي ظهرت في أمريكا في العصر الحديث.

وقد كان للنظام القضائي في أثينا أثره البالغ على نشأة السوفسطائيين، فقد فرضت الديمقراطية نظاما قضائيا يسمح للخصمين بالوقوف أمام القضاء والدفاع عن موقفيهما، وغالبا ما كانت المحكمة تتأثر بالبلاغة والخطابة ويصبح النصر على إثر ذلك حليفا للأبلغ حجة والألحن قولا حتى ولو كان ظالما، ولعل تلك النقطة بالذات هي التي شغلت الجانب الأكبر من فكر سقراط. فقد هبطت الخطابة من رقيّها وقوتها في التأثير لإحقاق الحق، إلى مستوى الجدل والدجل، ذلك أنها غرست في الناس كيفية قلب الحق باطلا والباطل حقا(17)، وقد كان لهذا بالغ الأثر على مجريات الحياة في بلاد اليونان.

فقد ادعى السفسطائيون أنهم يستطيعون؛ عن طريق دروسهم التي يتلقاها المستمع والتي ليس للحوار فيها دور هام، إلا لاستيضاح شيء ما(18)، ادعوا تعليم الناس منهجا للحياة في ذات الوقت الذي ادعوا فيه نسبية الحقائق كما أنهم علّموا الناس الخطابة دون أن يوجهوهم إلى الغاية من هذا العلم، وبالتالي وضعوا أسلحة في يد من لا يحسن استخدامها(19)، فقد كان همّ السوفسطائيين هو جمع المال بأية طريقة، فالغاية عندهم تبرر الوسيلة، ولذلك نجدهم يتبنون فكرة اللجوء إلى القوة لتحقيق غاياتهم المادية، والتي منها الوصول إلى الحكم، فإذا اقتضى الأمر عندهم أن ندوس على جماجم البشر ونتخذها سلالم للارتقاء إلى سدة الحكم فلا ينبغي أن نتردد في ذلك، فالسوفسطائيون قد اجتهدوا في إقناع الناس بأن مسألة المعرفة والقيم تخصهم لوحدهم، ولا شأن للآلهة بها فالإنسان هو مقياس كل شيء كما تقول السوفسطائية على لسان بروتاغوراس، ولذلك فإن للإنسان القدرة على تغيير واقعه الاجتماعي.

وإذا كان سقراط قد اتجه إلى دراسة الإنسان، وابتعد عن التفكير في الطبيعة أو الكونيات المجردة، مثلما فعل السوفسطائيون، فإنه لم يتفق معهم في التأكيد على مركزية الحواس، وبأن الإنسان شهوة وهوى، وأن المعرفة نسبية، فقد أراد سقراط أن يقول بأن الحواس لا تعبّر عن جوهر الإنسان وحقيقته، فالإنسان في حقيقته عقل ولذلك أراد أن يؤسس للمعرفة المبنية على العقل، فقدّم فكرة الكلي، التي كانت سببا لاختلافه مع السفسطائيين ففكرة الكلي عند سقراط تقود إلى المعرفة الكلية أو الإدراك الكلي الذي يجمع كل العقول بعكس الإدراك الجزئي الذي قال به السفسطائيون، وهو الإدراك الذي يختلف من فرد لآخر، وهذا تبعا لاختلاف الحواس، ولذلك فإن ما يراه الإنسان صحيحا فهو صحيح، وما يراه خاطئا فهو خاطئ، وبذلك تكون الحقائق نسبية عند السفسطائيين أما عند سقراط فإن الحقائق ثابتة، لأن العقل واحد عند كل البشر، ومن هنا "يمكننا الوصول إلى معنى عام للفضيلة وعمل الخير، فالإنسان لا يستطيع أن يعمل الخير وهو يجهل ما هو، وكل عمل صدر لا عن علم بماهية هذا

الخير ليس خيرا ولا فضيلة وليس هناك شر إلا من الجهل فلا يمكن أن يعلم الإنسان ما هو الشيء الخيّر تماما ولا يفعله، فكل إنسان بطبيعته يقصد لنفسه الخير، ولا يمكن أن يريد لها الشر والضرر وهو عالم بذلك"[20]. وهذا يعني أن الفضيلة عند سقراط علم، والرذيلة جهل.

وقد ألهم ظهور السفسطائيين سقراط الربط بين المنهج والغاية، والبحث في جواهر الأمور، وألهمه المبادئ والقيم العظيمة، والشجاعة في مواجهة الخطر السفسطائي على المعرفة والأخلاق والفضيلة[21]، فقد اعتقد سقراط أن فهم الفضائل شرط ضروري للحصول عليها، فلا يستطيع المرء أن يكون فاضلا بحق إلا بمعرفته ماهي الفضائل والوسيلة الوحيدة للحصول على هذه المعرفة هي دراسة الآراء المتعلقة بالفضائل المختلفة، وهذا ما دفع سقراط إلى أن يسأل الناس ويجادلهم.

وقد مثّلت فلسفة سقراط ثورة تصحيحية في قلب عاصمة الفكر أثينا، حيث جاءت فلسفته منقبة عن الفضيلة في مضمونها وإطارها الصحيح، باحثة عن القيم الحقيقية في جوهرها ومنبعها الأصيل، متابعا ذلك بطريقة قد تبدو غريبة إلى حد كبير، إنه يسأل عن قيمة معينة، ثم يتلقى الإجابات حولها ليفرغ الذهن مما علق به من معلومات غير صحيحة حول تلك القيمة، ثم يفند تلك الإجابات كافة ليثبت خطأها من ناحية، وليولد الحقيقة الكامنة خلف القيمة في نفوس المستمعين من ناحية أخرى، وهذه الطريقة هي التي عرفت"بالتهكم والتوليد"، اتبعها سقراط وصولا إلى الحقائق وجواهر الأمور في ثورية منقطعة النظير[22]، ليتميّز بذلك بمنهج كانت له أهميته، وكان له صداه وتأثيره على الدراسات العلمية الحديثة في علم النفس بوجه خاص، حيث ظهرت بوادر وإرهاصات المنهج الاستبطاني مع سقراط الذي وجه الأنظار إلى ضرورة العناية بالنفس، وهذا من خلال عبارته الشهيرة "أعرف نفسك بنفسك".

4- محورية السؤال في المنهج السقراطي:

لم يقدّم سقراط مذهبا أو نسقا فلسفيا متكاملا ينسب إليه وينفرد به وحده في تاريخ الفلسفة، ولكنه قدّم منهجا جديدا ومتميزا في البحث[23]، وهو المنهج الذي كان للسؤال حضور قوي فيه، فقد كان سقراط يكثر من طرح الأسئلة .

ولأن السؤال يعني الطلب فقد كان سقراط يحب الحكمة، ويطلبها ويتلمسها في كل من يصادفه، واعتاد أن ينزل إلى سوق أثينا أو التجمعات العامة، ثم يتحدث مع كل من آنس منه ميلا إلى الكلام في مسائل الحياة والموت وما يتعلق بهما، ولم يكن يحتكر الكلام، مثلما كان يفعل السفسطائيون الذين كانوا يحتكرون الكلام، لأنهم كانوا يدعون امتلاك الحكمة وما على الآخرين إلا الإصغاء، بينما كان سقراط يستمع إلى الآخرين ولم يكن يدعي امتلاك المعرفة، بل كان يقول بأنه لا يعرف إلا شيئا واحدا وهو أنه لا يعرف شيئا، ولذلك فقد كان "يتبادل الحديث، وهذه الطريقة التي مهر فيها سقراط هي طريقة الحوار، وقد قيل بأن الفلسفة حوار، ولو لم يكن حوار لما كانت فلسفة"[24] وإذا كان الأمر هنا يتعلق بسقراط، وهو أبو الفلسفة فإن استخدامه للحوار يعتبر أمرا طبيعيا، وليس بالأمر الغريب، ويقوم الحوار السقراطي أساسا على افتراض هام ذي شقين، هو أن الحقيقة موجودة وأن المعرفة ممكنة وهو يقوم أيضا على خطوتين، وهما التهكم والتوليد.

4-1- مرحلة التهكم:

كان سقراط يعلن كلما بدأ حوارا أنه يجهل الموضوع جهلا تاما، وأنه يرغب في معرفة ما قد يعلمه محاوره وكان شديد الثقة بجهل مناقشيه ميالا إلى التهكم منهم، وهذه الكلمة بالعربية والكلمات الأجنبية المقابلة مثل

"Irony"، ترجمة عن الكلمة اليونانية "eironia"، وهي لا تعني في الحقيقة غير "التظاهر"، بحيث إن المعنى الدقيق "للتهكم" السقراطي هو التظاهر بقبول رأي الطرف الآخر ثم جذبه إلى الحديث ثم فحص متضمنات هذا الرأي والوصول به إلى نتائج لا يقبلها العقل". فالتهكم السقراطي مرتبط أشد الارتباط بادعاء الجهل، وهو لا ينطوي بالضرورة على معنى "السخرية"، ورغم هذا فما من شك في أن سقراط كان يسخر أحيانا من المتحدثين معه، وأهم مظاهر سخرية سقراط هي تظاهره بثقته في حكمة الطرف الآخر، واستعداده للتعلم منه، وهذا ما يبدو جليا في محاورة أوطيفرون، حيث يقول سقراط لهذا الأخير: "ومع ذلك فأنا أعلم أنك أحكم مني بقدر ما أنت أصغر مني"[25].

ولكن سقراط يستدرج من يحاوره، ويضعه أمام أسئلة محرجة تضطره إلى إعلان عجزه. ويصل الأمر أحيانا إلى درجة الضحك على مدعي المعرفة مما يثير هذا الأخير، وهنا نقترب من معنى"السخرية" الحقيقي والمهم أن هذه السخرية على اتصال من غير شك بادعاء الجهل، ولكن سقراط لا يستخدم السخرية إلا مع مدّعي الحكمة من السفسطائيين وغيرهم، على حين أنه يدّعي الجهل مع الجميع، بما في ذلك الشباب الصغير[26].

ويظهر أسلوب سقراط التهكمي واضحا في محاورة بروتاغوراس التي تدور حول الفضيلة؛ حيث يقول سقراط: "وهكذا يا بروتاغوراس فإني حين ألقي بنظري إلى هذه الحالات أجد أنه ليس من الممكن أن تعلم الفضيلة. ولكني من جهة أخرى حين أسمعك تقول إن هذا ممكن، أجد رأيي يتأرجح وأرى أن ما تقوله فيه قوة لاعتقادي في اتساع خبرتك المكتسبة وأنك تعلمت الكثير كذلك، هذا فوق الكثير الذي اكتشفته أنت نفسك. فإذا كنت تستطيع إذن أن تبرهن لنا على نحو أوضح أن الفضيلة أمر يمكن أن يعلم، فلا ترفض مطلبنا هذا وقم ببرهنتك. فقال– بروتاغوراس–: وإني لموافق يا سقراط"[27].

لقد كان سقراط يعمد إلى طرح الأسئلة على الناس، ويصطنع الجهل بالموضوع الذي يسأل عنه لكي ينتهي بمحاوره في النهاية إلى إدراك جهله، ويظهر هذا على سبيل المثال في "تلك المناقشة التي أوردها كسينوفون بين سقراط والشاب المدعى"جلوكون بن أريستون" إذ لم يكن جلوكون قد تجاوز العشرين من عمره بيد أنه بدأ يتوق للوصول إلى مناصب الحكم. ولما لم تجد محاولات والده وأصدقائه في شفائه من داء الغرور والإدعاء الذي أثار عليه السخط العام تدخل سقراط إشفاقا عليه وإكراما لأخيه أفلاطون وبدأ يوجه له الحديث الذي انتفخت له أوداج جلوكون في بادئ الأمر، ولكن لم يكد سقراط يسترسل معه في الحوار حتى انتهى الحديث بإدراك جلوكون لجهله بكل أمور الاقتصاد والحرب، وهي من ألزم شروط السياسة واعترافه بأن سقراط إنما كان يتهكم منه"[28].

ويكشف لنا تهكم سقراط وسخريته من محاوره عن إلمامه الواسع بخبايا النفس، وما تميل إليه، وما يحرجها أو يثيرها، فكان يحسن التعامل مع من يحاورهم؛ من خلال نوعية الأسئلة التي يطرحها عليهم، ولم تكن هذه الأسئلة عشوائية وإنما كانت أسئلة متدرجة وهادفة، يستدرج سقراط بها محاوريه إلى الاعتراف بجهلهم عن قناعة ومن دون إكراه، وبذلك تشفى نفوسهم من داء الغرور الذي أصابها، وقد كان سقراط على دراية بأن المغرور سيثور ويزداد غرورا وتعنتا إذا ما طلبنا منه أن يسلّم أو يقرّ بأمر ما، والمغرور في نظر سقراط لا يعرف ولكنه يتوهّم ويدّعي أنه يعرف، ولذلك ينبغي تنبيهه بذكاء، وإخراجه من دائرة الوهم التي يعيشها، وأنسب طريقة لذلك في نظر سقراط هي التظاهر بالجهل أمام من يحاورهم، لأن هذا التظاهر من شأنه أن يؤثر على نفسيتهم ويشعرهم بالاطمئنان والثقة في أنفسهم لأن سقراط يظهر لهم كشخص جاهل ولا دراية له بالمواضيع المطروحة للبحث والنقاش.

فقد كان سقراط في جميع أطوار محاورته لتلامذته أو خصومه يتكلف الجهل، ويطنب في الثناء عليهم ففي محاورة أوطيفرون يثني سقراط على هذا الأخير فيقول:" جد جميل يا أوطيفرون لقد أدليت لي الآن بالجواب الذي أردت، ولكني لا أستطيع حتى الآن أن أقرر إن كان ما تقوله حقا أم لا، ولو أنني لا أشك في أنك ستقيم الدليل على صدق عبارتك ـ وهذا ما جعل أوطيفرون يزداد ثقة بنفسه، فيقول لسقراط: "بالطبع"[(29)]، وفي محاورة أقريطون يمدح سقراط محاوره حتى يزداد ثقة بنفسه، ويطمئن بأن سقراط جاهل بما يسأل عنه وأنه الأدرى والأعرف بموضوع النقاش، فيقول سقراط لأقريطون: "فأنت إذن حكيم صالح، لا يؤثر فيك الهوى ولا تميل بك ظروفك وموقفك عن جادة الحق"[(30)].

ويظهر ثناء سقراط في محاوراته حتى على ألذ خصومه، كالسفسطائي ثراسيماخوس في الجمهورية، حيث يؤكد هذا الأخير هذه الحقيقة بقوله: "يا إلهي! تلك هي طريقتك المميزة في التهكم وادعاء الجهل يا سقراط! ألم أتكهن بذلك منذ البداية؟ ألم أخبر الباقين بأنك إذا ما سئلت، ترفض الإجابة، وتدعي الجهل، وتفعل كل شيء إلا أن تقدم جوابا؟"[(31)]، وقد كان ثراسيماخوس على حق فيما ذهب إليه، فقد كان سقراط يحرص كل الحرص على الظهور في صورة الشخص الجاهل المحتاج لمعرفة الآخرين، فهو يسأل لأنه يحب الحكمة ويطلبها، ولكنه لا يمتلك الإجابة فهو ليس حكيما، وبذلك فهو يرد على السفسطائيين الذين يدعون امتلاك الحكمة، فكأن سقراط بذلك يقول للناس لست حكيما وما أنا إلا فيلسوف، وليست الفلسفة سوى محبة الحكمة، فالحكمة تعني الشمولية، وتعني الموسوعية، وتعني الكمال، وهي لا تتحقق إلا للآلهة عند اليونانيين، ولذلك فما على الإنسان إلا أن يتعلق بالحكمة، ويحبها، ويحاول الاقتراب منها.

لقد أنكر سقراط مرارا معرفته أي شيء عن الجمال أو الفضيلة أو العدل أو أيًا كان ما يناقش، وكان هذا الجهل المعلن علامته المميزة[(32)]، وقد كانت سخرية سقراط مدخلا إلى كسب ثقة محاوريه، لا سيما الخصوم منهم لا إلى التكبر أو الاستعلاء. لذا كانوا يخرجون جميعا وكلهم ثناء عليه وتعلق به[(33)]، يقول بروثاغوراس: "أما أنا فإني امتدحك يا سقراط لحماسك ولمنهجك في تناول المشكلات (...) ولهذا فإني قلت عنك أمام كثيرين أنك، من بين من قابلتهم، الذي أعجبت به أعظم إعجاب (...) وإني أضيف إني لن أدهش إذا صرت يوما من بين الرجال المشهورين بالحكمة"[(34)].

لقد كان خصوم سقراط في الغالب من السفسطائيين المغرورين ممن يتولون المناصب الرفيعة في الدولة والذين كانوا يتحرجون من الظهور في صورة الجهلة؛ الذين يحتاجون إلى الآخرين لكي يعرفوا، فالسفسطائي يعتقد دائما بأنه الأدرى، والأعرف، والأجدر، والأقدر على تقديم الأجوبة للأسئلة المطروحة، وكان سقراط يدرك جيدا بأن السوفسطائي لا يمكن أن يقر ويعترف بالوقوع في الخطأ، ولا يمكن أن يعترف بجهله، لأنه يعتقد بأن ما يراه صحيحا فهو صحيح، وما يراه خاطئا فهو خاطئ.

ولذلك اتخذ سقراط من احتراف الجهل سلاحا هجوميا وحوّله إلى سلاح خطابي، استخدمه ببراعة ضد أولئك المتباهين بأهميتهم وحكمتهم والمتظاهرين بمعرفة ليست لديهم، ومثل هذا التظاهر الضحل بالمعرفة يفضحه سقراط دون هوادة. ومع أمثال هؤلاء الناس يبدأ النقاش بالإقرار بجهله والتعبير عن رغبته في تعلم المعرفة التي لديهم وهم في شغفهم باستعراض معرفتهم إنما يندفعون للإقرار ببعض التوكيدات الموجبة. ويظهر سقراط ابتهاجه بهذا لكنه يضيف أن هناك شيئا أو شيئين في الموضوع المطروح لم يفهمه ويشرع في إلقاء أسئلة محرجة لإظهار الضحالة أو التفاهة أو الجهل الوارد في الأجوبة[(35)].

وتظهر مرحلة التهكم في منهج سقراط كمرحلة سلبية؛ كان فيها سقراط يتصنع الجهل والسذاجة، ويتظاهر بقبوله ورضاه بأقوال محدثيه، ولا يقدم لهم إجابات، بل يطرح أسئلته الدقيقة والهادفة عليهم، فيدفعهم إلى إكتشاف أخطائهم وتناقضاتها والاعتراف بها، وبذلك يكون سقراط قد حقق غايته من خلال محاوراته، وخاصة مع السوفسطائيين، فقد كان يسعى إلى دفعهم للاعتراف بجهلهم، وتمريغ أنوفهم في الوحل كما يقال.

2-4- التوليد:

التوليد لفظة استعارها سقراط من صنعة أمه "فايناريت" القابلة، وذلك لكي يشير بها إلى نظريته في أن المعرفة فطرية في النفس، وأن مهمة المعلم تتلخص في مساعدة الآخر على استخراج الكامن عنده وليس في إضافة شيء جديد إليه، وقد شرح أفلاطون المعنى المقصود بهذا التوليد السقراطي حين كان بصدد عرض نظريته في المعرفة، وذلك في محاورة تياتيتوس"[(36)].

وفي هذه المرحلة يعمد سقراط إلى مساعدة محدثيه بأسئلة واعتراضات مرتبة ترتيبًا منطقيًا للوصول إلى الحقيقة؛ التي أقروا أنهم يجهلونها فيصلون إليها وهم لا يشعرون ويحسبون أنهم استكشفوها بأنفسهم، وهذا هو التوليد أي استخراج الحق من النفس- وكان سقراط يقول في هذا المعنى: إنه يحترف صناعة أمه- وكانت قابلة - إلا أنه يولّد نفوس الرجال[(37)]، ويظهر لنا هذا واضحا وجليا في محاورة تياتيتوس، حيث ينتهي الحوار بين سقراط وتياتيتوس في هذه المحاورة إلى ما يلي: "س: إذن فإنه من باب السخف أن يأتي أحدهم ليؤكد لنا نحن الذين نبحث عن العلم أنه الظن الصادق مع العلم بالخاصة المميزة أو أي شيء يرغبون فيه. وكذلك، يا تياتيتوس، لن يكون العلم إحساسا ولا ظنا صادقا ولا برهانا منطقيا يضاف إلى هذا الظن الصادق. تيا: يبدو أنه ليس كذلك. س: فهل مازلنا نعاني يا عزيزي، من آلام الوضع فيما يتعلق بموضوع العلم أم قد انتهينا من هذا؟ تيا: نعم، حقا لقد انتهينا، فقد وضحت بفضلك أشياء كثيرة تربو عما كان لدي. س: فهل انتهى فننا في التوليد سدى، ولم يأت بنتيجة تستحق، التقدير؟ تيا: هذا مؤكد"[(38)].

ففي التوليد يؤكد سقراط لمحاوره بأنه يعرف، وأن عليه إخراج معرفته وإظهارها، وهذا ما يظهر بوضوح في محاورة أوطيفرون، حينما يقول سقراط لهذا الأخير: "لذلك فانا على يقين أنك عليم بطبيعة التقوى والفجور"[(39)]، وبذلك ينبّه سقراط أوطيفرون إلى حقيقة مهمة، وهي أنه يعرف حقيقة التقوى والفجور التي هي موضوع النقاش وهذا يحيلنا من دون شك إلى الحديث عن حقيقة المعرفة، وهل هي فعلا تذكر كما يقول أفلاطون تلميذ سقراط وبالتالي التساؤل عما إذا كان سقراط هو صاحب فكرة "المعرفة تذكر والجهل نسيان" تلك التي تنسب إلى أفلاطون، أم أن هذا الأخير هو صاحب الفكرة؟ وهو السؤال الذي يستمد مشروعية طرحه من كون سقراط لم يترك شيئا مكتوبا، وأن أفلاطون هو كاتب المحاورات التي تنسب إلى سقراط، والتي تتكشف من خلالها ملامح منهجه الفلسفي من خلال طريقة التهكم والتوليد، والتي يظهر فيها هذا الأخير كمرحلة بنائية تأسيسية إيجابية، لأنها تكشف عن الجديد.

فالتوليد يكشف عن الخصوبة والإنتاج، فهو في جوهره "استخلاص الحقيقة الكامنة في داخل الخصم ذاته والتي ينطوي عليها عقله، وإن كان يغشاها نوع من الضباب الذي يمكن تبديده بالتوجيه السليم"[(40)]، ويكون السؤال دائما هو الأداة التي توجه الحوار وتدفع به إلى الأمام، ليحقق الغاية التي رسمها سقراط، فبعد سلسلة الأسئلة المتدرجة والهادفة التي يلقيها سقراط على محاوريه، "يكتشف هؤلاء أنهم قد وقعوا في التناقض فيعترفون بجهلهم وهذا ما فعله سقراط مع بروتاغوراس حينما استدرجه بالأسئلة المحرجة، التي كان سقراط يهدف من ورائها إلى

فحص ما يخص المشكلات المرتبطة بالفضيلة وطبيعتها، لأنه كان على يقين بأن وضوح موضوع الفضيلة يعني وضوح موضوع النقاش"[41].

ويؤكد ذلك قول سقراط لبروتاغوراس في المحاورة المسماة باسم هذا الأخير: "ذلك أنني على يقين أنه لو صار هذا واضحا لأصبح ذلك الموضوع الآخر على أوضح ما يكون، وهو الموضوع الذي امتدت بشأنه كلماتنا أنا وأنت: أنا قائلٌ إن الفضيلة لا يمكن أن تعلم وأنت إنها على العكس من ذلك يمكن أن تعلم. وأن خاتمة مناقشاتنا هذه تبدو لي كرجل يشير بأصبع الاتهام إلينا ويضحك ساخرا منا"[42].

ويكشف سقراط عن سر سخرية الرجل منه ومن بروتاغوراس بقوله: "وإذا حدث وتكلم فلعلّه كان سيقول: يا لغرابتكما، يا سقراط وأنت يا بروتاغوراس، فأنت وقد كنت تقول فيما سبق إن الفضيلة لا يمكن أن تعلم، تجتهد الآن في مناقضة نفسك وتحاول البرهنة على أن كل شيء علم، بما في ذلك العدالة والاعتدال والشجاعة، بحيث يظهر على هذا النحو أوضح ظهور أن الفضيلة يمكن أن تعلم، ذلك أنه لو كانت الفضيلة شيئا آخر غير العلم كما حاول بروتاغوراس أن يقول، فإنه واضح أنها لن تكون موضوعا للتعليم. أما إذا بدا الآن أنها كلها علم، كما اجتهدت أنت يا سقراط في بيان ذلك، فإنه سيكون عجيبا لو أنه لم يكن ممكنا تعليمها ! أما بروتاغوراس فإنه بعد أن أقام حديثه على أن الفضيلة يمكن أن تعلم يبدو الآن على الضد من ذلك مجتهدا في إظهار أنها بعيدة عن أن تكون علما، وهكذا فإنها ستكون أقل شيء يمكن أن يكون موضوعا للتعليم"[43].

ويبدو موقف سقراط في مرحلة التوليد، وهي مرحلة الشعور بالجهل عند المتحدث، على أنه موقف أخلاقي بالأساس، لأن سقراط يستهدف تطهير نفس المتحدث من أوهام المعرفة، بعد أن يستنبط بنفسه النتيجة التي يقتنع بها، وهي النتيجة المنطقية الحتمية التي ينتهي إليها النقاش، وهنا تتحدد معالم المنهج السقراطي على أنه المنهج الحواري الاستنباطي، الذي يسعى سقراط من خلاله إلى جعل محدثه أكثر قابلية للتعلم، والبحث عن الحقيقة من جديد، ففي محاورة تياتيتوس، يقول سقراط لهذا الأخير: "فإذا حاولت بعد ذلك أن تتصور من جديد وتصورت فإنك سوف تمتلئ بأفكار أفضل بعد أن تطهرت بالبحث الحالي أما على العكس من ذلك إن بقيت خاليا من الأفكار فإنك سوف تكون أخف ظلا على من ترافقهم وأكثر تهذيبا لأنك بحكمة ما لن تتخيل مطلقا أنك تعرف ما لا تعرف. إن في هذا وحده تتلخص كل قوة فينا، ولست أعرف شيئا مما تعرفه كل هذه العقول الفذة المدهشة في أيامنا هذه وفيما سبق. لكن فن التوليد هذا هو موهبة وهبتها السماء لأمي إذ تولد النساء ووهبتها لي إذ تولد النساء ووهبتها لي إذ أولد النفوس النبيلة"[44]، وما كان لهذا التوليد أن يتم دون أداة اسمها السؤال.

5- السؤال السقراطي وآفاقه المعرفية:

يقال خير لك أن تسأل مرتين من أن تخطئ مرة واحدة، وسقراط لم يكن يسأل مرة واحدة بل كان يسأل ويسأل دون أن يقدّم إجابات حاسمة لأسئلته، فقد كان في حواره يدّعى باستمرار أنه لا يعرف شيئا، وهذا هو السبب في أن كاهنة دلفي قالت عنه إنه "أحكم الناس في بلاد اليونان"، وكان يشجع تلاميذه على مناقشة الأفكار ليريهم عادة، كيف يصعب العثور على إجابات مقنعة عن الأسئلة[45].

لقد أراد سقراط أن يوجّه الأنظار إلى أن الفلسفة في جوهرها تساؤل، فهي لا تكف عن طرح السؤال، وإذا كان السؤال يبحث له عن جواب دوما، فإن الجواب لا يلبث أن يتلاشى أما السؤال فيبقى مستمرا، وهذا ما أدركه كارل ياسبرز حينما ذهب إلى التأكيد على أن الأسئلة في الفلسفة أهم من الأجوبة، لأن كل جواب لا يلبث أن يتحول إلى سؤال من جديد. فالفلسفة هي ممارسة السؤال، بمعنى الخروج من سؤال إلى سؤال. وإذا كانت الفلسفة تعبر

عن دوام السؤال؛ فإن هذا ولا شك يفتح لها الآفاق ويثري إمكاناتها، طالما أنها لا تكف عن الطلب، أي طلب المعرفة، والسعي لاكتشاف الحقيقة.

إن للسؤال السقراطي طاقة وقوة عجيبة على التداعي، فكل جواب يفتح باب السؤال، ويعمل على إثارة الشكوك أكثر مما يطمئن. فالعبرة ليست في الجواب بل في السؤال الذي يتحقق من صحة الجواب، وثمة أمر هام جدا يقودنا إليه السؤال السقراطي، وهو أن الإنسان لا يعترف للآخر بأنه على خطأ إلا إذا اقتنع هو نفسه بذلك، ولكي يقتنع بأنه على خطأ ينبغي للحجج أن تكون قوية ودامغة، وهذه هي الفلسفة، فهي حوار يتسع للرأي والرأي الآخر، حوار يعمل على تحفيز العقول وتوسيع المدارك، وفتح آفاق المعرفة، وترسيخ القناعات.

وقد اعترف خصوم سقراط لهذا الأخير ببراعته في طرح الأسئلة، ويظهر ذلك على سبيل المثال في قول بروتاغوراس لسقراط: "إنك تعرف كيف تسأل يا سقراط، وأنا من جانبي يسرني أن أجيب عن الأسئلة الجميلة"[(46)]. وهذا يكشف لنا بوضوح بأن السؤال السقراطي له سحره وجاذبيته الخاصة، فهو يدفع بخصوم سقراط إلى الإستمرار في الحوار، لأن أسئلة سقراط تلامس وجدانهم وتدفعهم إلى المعاناة، ولن نكون مبالغين إذا قلنا هنا بأن سقراط هو أول الفلاسفة الوجوديين، وبأنه قد فتح الآفاق لأصحاب المذهب الوجودي الذي ظهر في العصر الحديث، أولئك الذين يؤمنون بأن الحقيقة لا تخرج إلا من رحم المعاناة.

ويمكن القول بأن تأثير سقراط الأكبر على معاصريه كان قبل كل شيء تأثيرا منهجيا؛ فسقراط هو صاحب منهج عام في البحث، طبقه في ميدان الأخلاق. فقد كان سقراط يعتبر الحوار طريقا أمثلا للوصول إلى الحقيقة، ويقوم هذا الحوار بين طرفين، يقتنع كل منهما بالنتيجة التي اتفقا عليها، وهو بطبيعته أمر شخصين وهذه السمة تميّز المنهج السقراطي عن منهج الطبيعيين، الذي كان قائما في الغالب على الكتابة، وعن منهج السفسطائية القائم على إعطاء دروس لأي عدد، دروس يتلقاها المستمع، وليس للحوار دور هام فيها، إلا لاستيضاح شيء ما[(47)].

ومن خلال منهجه يكون سقراط قد وضع بصمته في تاريخ الحياة الفكرية، ويكفيه أنه قد استخدم المنهج الحواري، فالحوار العقلي منهج خصب لتعميق الحياة الفكرية بوجه عام[(48)]، وأداة سقراط في حواراته هي السؤال فهذا الأخير هو مفتاح سقراط لولوج عالم المعرفة.

لقد عاش سقراط إلى جانب البسطاء من الناس يناقشهم ويناقشونه في الشوارع والأسواق؛ محاولا أن يقيم علاقته وعلاقتهم مع الحقيقة على نحو جديد، بعد أن تنبّه بأنه لا وجود لمعرفة مطلقة. راح يعلمهم احترام الدين وطاعة القوانين على أساس روحي لا على أساس شكلي أو تقليدي، وأخذ يُشككهم في علمهم المزعوم ليكونوا أقدر على النقد والاستقلال والمقاومة، أي أقدر على وضع العقل في أنفسهم وفي واقعهم الذي خلا من العقل، وإذا كان سقراط قد بحث في معنى الحياة والإنسان، فإنه لم يبحث خارج الموقف الإنساني فكان ملتزما باللحظة التي عاش فيها والناس الذين شاركهم حياتهم وهمومهم. وظل الإنسان عنده هو أول حرف في الفلسفة وآخرها، واستطاع أن يسكن الفلسفة في قلب الواقع والتاريخ، ويجعلها في الوقت نفسه تغادر مسكنها وترتفع فوقه لتسأل عن الحقيقة الكلية والمعنى الثابت الأخير. لهذا يبقى سقراط سؤالا حيا لا ييأس ورمزا متجددا للنقد والمقاومة، وتعبيراً خالدا عن روح التفلسف[(49)].

ولعل قيمة سقراط الكبرى تكمن في دفاعه الرائع عن العقل باعتباره المثل الأعلى وفي تصوره الرفيع الواضح لما يتطلبه العقل، فقد دعا سقراط إلى استعراض الآراء على أنها فروض ممكنة لنكشف عما يترتب عليها من

نتائج وعما بينها من روابط؛ ودعانا إلى أن نقبل مختارين على تعقب الحجاج إلى حيث ينتهي بنا مهما يكن وإلى أن نعلن عن أفكارنا إعلانا صريحا على الملأ، وأن ندعو الآخرين إلى نقد أفكارنا، وأن نكون على استعداد أن نعاود النظر في تلك الآراء(50)، ولا أحد بإمكانه أن ينكر أهمية المراجعة وقيمتها في تجربة الإنسان المعرفية وليس من المبالغة القول بأن الذي لا يراجع عمله كمن لم يفعل شيئا.

لقد كان سقراط يتفلسف بحق، وكان معنى التفلسف عنده هو البحث والسؤال، ولو لم يصل الإنسان إلى جواب أخير، و"الفلسفة هي التي تملك السؤال الذي يظل له جواب منفتح أبدا أمامه"(51)، وسقراط لم يكن يسأل ليجيب، ودليل ذلك أن الجانب الأكبر من محاورات أفلاطون التي خلدته وجعلته الشخصية الرئيسية فيها لا ينتهي إلى جواب حاسم؛ بل يكتفي بطرح السؤال وتقليبه على وجوهه الممكنة، وبذلك يكون سقراط قد وجه الأنظار إلى أن العقل البشري قد كتب عليه "أن يكون مثقلا بأسئلة ترهقه، وهو لا يستطيع أن يصرف النظر عنها، لأنها مفروضة عليه بحكم طبيعة العقل نفسها، لكنه في الوقت نفسه لا يستطيع الإجابة عنها، لأنها تجاوز كل ما يملك العقل البشري من قدرات"(52).

خاتمــــــة:

وفي الأخير يمكننا القول بأن سقراط قد وجه الأنظار إلى أهمية السؤال ومحوريته في المعرفة، وباختياره للحوار المتسلّح بالسؤال يكون سقراط قد تفادى تحنيط فلسفته في مذهب مكتوب، فقد أراد لفلسفته أن تكون مفعمة بالحياة التي تقضي عليها الكلمات المكتوبة، وهكذا فإن سقراط لم يعرف ولم يشتهر بأنه صاحب مذهب، وإنما عرف بأنه صاحب منهج، ومنهجه هذا ليس منهجا لتعليم الفلسفة بقدر ما هو منهج للتفلسف، فلم يكن سقراط يناقش الناس لكي يعلمهم شيئا، بل لكي يبيّن لهم طريق المعرفة، ويرسّخ لديهم القناعة بالوقوع في الخطأ ومجانبة الصواب، فلم يرد سقراط أن يقول لخصومه بأنكم على خطأ؛ لأنه كان يدرك بأن ثائرتهم ستثور خاصة وأن خصومه قد كانوا في الغالب من أصحاب الجاه والنفوذ من السوفسطائيين، وإنما أراد أن يدفعهم إلى الاقتناع بخطأ تصوراتهم فيعترفون لوحدهم بأنهم على خطأ، فكأن سقراط يقول بذلك للإنسان: لا تقل "إنك على خطأ" لمن تعرف بأنه على خطأ، وإنما عليك أن تثبت له بأنه على خطأ وتقنعه بذلك ليعترف بنفسه بالخطأ.

لقد اهتم سقراط بالبحث في الإنسان بوصفه الكائن العاقل، ونبّه إلى أهمية السؤال وضرورة الحرص على حسن صياغته، ووظيفيته، وجديته، فلم يكن سقراط يطرح الأسئلة على خصومه بعشوائية عمياء، وإنما كان يطرح عليهم أسئلة مرتبة وهادفة، تنسف كل الإجابات المقدمة من طرفهم، لكي يعرفوا بأن العبرة ليست في الجواب وإنما في السؤال الذي يكشف عن مدى صحة الجواب، وبذلك يظهر السؤال كأداة منهجية محورية لا غنى عنها في رحلة البحث عن المعرفة والكشف عن الحقيقة، ومن هنا كان ينبغي على الإنسان أن يهتم بالسؤال، ويحسن طرح الأسئلة التي تتعلق بقضاياه وشؤونه الهامة والمصيرية، تلك التي تلامس وجدانه، وتثير عقله وتستفزه في مغامراته المعرفية، ويبقى السؤال مفتاحا ضروريا لخزائن العلم والمعرفة التي يعج بها هذا الوجود، وعلى الإنسان أن يعرف قيمة هذا المفتاح ويحرص عليه.

الهوامش:

- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 2004، ص 411.

2- جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، (1999)، لسان العرب، ج6، مؤسسة التاريخ العربي، ط3، بيروت، لبنان، ص 134-135.

3- سورة فصلت، الآية 10.

4- جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، المرجع السابق، ص 134-135.

5- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982، ص 674-675.

6- طه عبد الرحمن، (1995) فقه الفلسفة، الفلسفة والترجمة، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، ص 11.

7- مطاع صفدي، (1990)، نقد العقل الغربي/ الحداثة ما بعد الحداثة، مركز الإنماء القومي، د.ط، لبنان، ص 15.

8- عبد الله محمد الغذامي، (1993)، ثقافة الأسئلة، مقالات في النقد والنظرية، دار سعاد الصباح، ط2، الكويت، ص 87.

9- جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، (1999)، لسان العرب، ج14، دار إحياء التراث العربي، ط3، بيروت، لبنان، ص 300.

10- مجد الدين الفيروز آبادي، (2005)، القاموس المحيط، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ط8، القاهرة، ص 208.

11- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982، ص 435.

12- مجمع اللغة العربية"، (1983) .المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ص 195.

13- الطاهر وعزيز، (1990)، المناهج الفلسفية، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، ص 11، 13.

14- المرجع نفسه، ص 31-32.

15- محمد ممدوح، (2018) سقراط شهيد الكلمة، الدار العربية للكتاب، القاهرة، ص 18-19

16- أحمد أمين، زكي نجيب محمود، (1935)، قصة الفلسفة اليونانية، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ص 93.

17- محمد ممدوح، المرجع السابق، ص 19-20.

18- عزت قرني، (1993)، الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون، جامعة الكويت، الكويت، ص 129.

19- محمد ممدوح، المرجع السابق، ص 32.

20- إبراهيم الزيني، (د.ت)، تاريخ الفلسفة من قبل سقراط إلى ما بعد الحداثة، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، ص 128.

21- عزت قرني، مرجع سابق، ص 128.

22- محمد ممدوح، مرجع سابق، ص 11-12.

23- يوسف كرم، (د.ت)، تاريخ الفلسفة اليونانية،هنداوي، القاهرة، ص 69.

24- أحمد أمين، زكي نجيب محمود، مرجع سابق ، ص 107.

25- محاورات أفلاطون، ترجمة زكي نجيب محمود، مكتبة الأسرة، مصر، د.ط، 2001، ص 46.

26- عزت قرني، مرجع سابق، ص 132.

27- أفلاطون، (2001)، في السفسطائيين والتربية محاورة"بروتاغوراس، ترجمة وتقديم عزت قرني، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، ص 87.

28- أميرة حلمي مطر، (1998)، الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها، د.ط، دار أنباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص 143.

29- محاورات أفلاطون، ترجمة زكي نجيب محمود، مكتبة الأسرة، مصر، د.ط، 2001، ص 33.

30- المصدر نفسه، ص 124.

31- أفلاطون، (1990)، الجمهورية، موفم للنشر، الجزائر، ص 2.

32- أنطوني جوتليب، (2015)، حلم العقل، ط1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص 164.

33- ماجد فخري، (1991)، تاريخ الفلسفة اليونانية، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ص 73.

34- أفلاطون، في السوفسطائيين والتربية، مصدر سابق، ص 172.

35- وولتر ستيس، (1984)، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ص 115-116.

36- أفلاطون، (2000) محاورة تياتيتوس أو عن العلم، ترجمة أميرة حلمي مطر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص 31- 35.

37- يوسف كرم، (د. ت)، .تاريخ الفلسفة اليونانية، هنداوي، القاهرة، ص 69-70.

38- أفلاطون، (2000) محاورة تياتيتوس أو عن العلم، ترجمة أميرة حلمي مطر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص 136.

39- محاورات أفلاطون، مصدر سابق، ص 57.

40- فؤاد زكريا، (2004)، جمهورية أفلاطون، د.ط، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، جمهورية مصر العربية، ص 45.

41- أفلاطون، في السوفسطائيين والتربية، محاورة "بروتاغوراس، مصدر سابق، ص 180.

42- المصدر نفسه، الصفحة نفسها، ص 180.

43- المصدر نفسه، ص 171.

44- أفلاطون، محاورة تياتيتوس أو عن العلم، مصدر سابق، ص 136.

45- ديف روبنسون، جودي جروفز، (2001)، أقدم لك الفلسفة، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ص23.

46- أفلاطون في السوفسطائيين والتربية، محاورة بروتاغوراس، مصدر سابق، ص 83.

47- عزت قرني، مرجع سابق، ص 128، 129، 134.

48- يحيى هويدي، (1963)، قصة الفلسفة الغربية، د. ط، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ص 25-26.

49- عبد الغفار مكاوي، (2020)، لم الفلسفة، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، ص 47-48.

50- فؤاد كامل وآخرون، (د.ت)، الموسوعة الفلسفية المختصرة، دار القلم، بيروت، لبنان، ص 262.

51- مطاع صفدي، مرجع سابق، ص 16.

52- إيمانويل كنت، (2013)، نقد العقل المحض، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، لبنان، ص 17.

- قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم

1- أفلاطون، (2001)، في السفسطائيين والتربية محاورة"بروتاغوراس، ترجمة وتقديم عزت قرني، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة.

2- أفلاطون، (2000)، محاورة تياتيتوس أو عن العلم، ترجمة أميرة حلمي مطر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

3- أفلاطون، (1990)، الجمهورية، موفم للنشر، الجزائر.

4- إبراهيم الزيني، (د.ت)، تاريخ الفلسفة من قبل سقراط إلى ما بعد الحداثة، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة.

5- أحمد أمين، زكي نجيب محمود، (1935)، قصة الفلسفة اليونانية، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.

6- أميرة حلمي مطر، (1998)، الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها، د.ط، دار أنباء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة.

7- إيمانويل كنت، (2013)، نقد العقل المحض، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، لبنان.

8- أنطوني جوتليب، (2015)، حلم العقل، ط1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة.

9- جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، (1999)، لسان العرب، ج6، مؤسسة التاريخ العربي، ط3، بيروت لبنان.

10- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982.

11- ديف روبنسون، جودي جروفز، (2001)، أقدم لك الفلسفة، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، مصر.

12- وولتر ستيس، (1984)، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.

13- طه عبد الرحمن، (1995)، فقه الفلسفة، الفلسفة والترجمة، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء.

14- يوسف كرم، (د.ت)، تاريخ الفلسفة اليونانية، هنداوي، القاهرة.

15- يحيى هويدي، (1963)، قصة الفلسفة الغربية، د. ط، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.

16- الطاهر وعزيز، (1990)، المناهج الفلسفية، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء.

17- ماجد فخري، (1991)، تاريخ الفلسفة اليونانية، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

18- مطاع صفدي، (1990)، نقد العقل الغربي/ الحداثة ما بعد الحداثة، مركز الإنماء القومي، د.ط، لبنان.

19- مجد الدين الفيروز آبادي، (2005)، القاموس المحيط، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ط8، القاهرة.

20- محمد ممدوح، (2018)، سقراط شهيد الكلمة، الدار العربية للكتاب، القاهرة.

21- مجمع اللغة العربية، (1983)، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة.

22- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 2004.

23- عبد الله محمد الغذامي، (1993)، ثقافة الأسئلة، مقالات في النقد والنظرية، دار سعاد الصباح، ط2، الكويت.

24- عبد الغفار مكاوي، (2020)، لم الفلسفة، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة.

25- فؤاد زكريا، (2004)، جمهورية أفلاطون، د.ط، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، جمهورية مصر العربية.

26- فؤاد كامل وآخرون، (د.ت)، الموسوعة الفلسفية المختصرة، دار القلم، بيروت، لبنان.